

خصائصُ البيان القُرآني في سورةِ المسد

مُراجعاتٌ في المَنهَجِ وَالبيانِ



إعداد

أ.د. محمود توفيق محمد سعد

الأستاذ في كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى سابقا

- من مواليد ١٣٧٠هـ بصعيد مصر.
- تخرج في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر في القاهرة عام ١٣٩٤هـ.
- نال درجة التخصص (الماجستير) في البلاغة والنقد عام ١٣٩٩هـ، كما نال درجة العالمية (الدكتوراه) في البلاغة والنقد عام ١٤٠٣هـ بأطروحته: «**نظرية التناسب القرآني عند البقاعي**».
- له أكثر من خمسة وعشرين كتابًا وبحثًا علميًّا منشورًا، منها: «**سبل استنباط المعاني من الكتاب والسنة: دراسة تحليلية ناقدة**»، «**معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآني في سياق السورة**»، «**الاستفهام القرآني دقائق علمية ورقائق إيمانية**»، «إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز في البيان القرآني»، «مسالك العطف بين الإنشاء والخبر في الذكر الحكيم».

- البريد الشبكي: almasry411@gmail.com

الملخص

تعمدُ هذه الدراسة إلى التحقق من فرضٍ أنّ لكل سورة من سور القرآن مقصُودًا وموضوعًا، وأن لذلك أثرًا في أن تكون لها خصائص أسلوبية تُبين عن مقصُودها وموضوعها، تظهر معالم تلك الإبانة تعبيرا وتصويرا في المعالم الكبرى في البناء الكليّ(النّصّيّ) للسورة وتماسكها، وفي الملامح الدقيقة لأسلوب التعبير والتصوير فيها معتمدةً هذه الدراسة على منهج الاستقراء في سبر الفرضِ العلمي والبحث عن الحقيقة وكشفها، وعلى المنهج البلاغي في قراءة البيان وتحليله، وتذوقه، واستنباط مكنوناته.



بسْمِ اللهِ الرّحمنِ الرَّحيم

ممَّا يَجمُلُ الاعتناء بِه النَّظرُ في السّماتِ الكليّة لمنهج الإبانةِ، والسّنّة البيانيّة للإفهامِ في القُرآنِ الكريم فهو خطابُ الله ﷻ عباده يُبينُ لهم فيه عمّا هو مُريدُه مِنهم، وما لا يُريدُه منهم.

وهُو ﷻ إذا ما جعل خطابَه لَهم عَلَى مَعهودِ خِطابِ العَربِ بِعضِهم بعضًا زَمنَ نُزولِ القرآنِ لِيَتَحقَّقَ لَهُمُ العَقلُ عَنهُ ، وَالفهمُ لِما أودَعَهُ فِي بيانِهِ لَهُم ﷻ فَإنَّ لَه مِن ذلك نَهجًا وَسنّةً بَيانِيَّةً تَليقُ بجلالِ ما يُخاطبُهُم به، وقد صَرّف الله تعالى البيانَ عن جلالِ هذا القرآن في مواضِع عدَّةٍ منه تَصريفًا لافِتًا لِلبَصائِر، مُبرِزًا مُقوِّماتِ هَذا الجَلالِ ومَعالِمَه وتنوُّعَه، وهَذا يَضعُ عَلَى كَاهِلِ كُلِّ مُخاطَبٍ بِهذا القُرآنِ أن يَجعلَ مِن مَسؤوليَّتِهِ صَحيحَ العِرفان بكليّاتِ هذا المنهجِ، وأصولِ تِلكَ السُّنَّةِ البَيانِيَّةِ.

وإذا مَا كان للقرآنِ سُنةٌ بيانيَّةٌ عامّةٌ حاضرةٌ فِي جميعِ سُورِه، فهلْ لكلّ سُورةٍ منهجٌ خاصٌ بها في الإبانةِ والإفهامِ فيتخذ لحسن فهمها، واستنباطِ مكنوز دقائقِ معانيها من أدَواتِ التبصّر ما يليقُ مع تميّزِها ؟

وما مخرجُ هذا المنهج الذي اختصّت بِه هذه السّورة في الإبانةِ عَن دقائقِ معانِي الهدَى فيها ؟

وهلْ لِمقصِديّةِ البيانِ أثرٌ في اصطفاءِ منهجِ الإبانةِ عمَّا تحملُه السُّورةُ من معانِي الهدى؟

وهل الرَّبطُ بيْن مقصِديّة السُّورةِ، وَمَأمِّها التَّربويّ التّثقِيفيّ والنَّهج الإبانيّ عِن تلك المعانِيِّ ذو أهمية في تأويل البيانِ القُرآنيّ ؟

وهل يُعينُ هذا على حُسنِ الفهم لما تحملُه الآياتُ من معانٍ جزئيةٍ تفصيلية ولاسّيما فيما جاء فيها من تصريفِ البيان عمّا كان مقارِبَهُ مِن المعانِي في سُورٍ أخر،

ولا سِيّما المعانِي المركزيَّة فِي القرآنِ وَهِيَ المَعانِي الَّتِي حَظِيتْ بِفَضلٍ عِنايةٍ فِي تَصرِيفِ بيانِها، وفِي اصطفاءِ مواقِعها على لاحبِ السِّياقِ التَّرتيليّ للقُرآن؟

أسئلةٌ تَتَوافدُ على قلبٍ مَن ينظرُ في البيانِ القرآنيّ وفِي تَنَوّعِ السُّورِ فِي الإبانةِ عَن معانيها مصاحبًا تنوّعَها فِي مقاصِدها وموضوعاتِها. وهذا ما تسعى هذِه الكلماتُ إلَى محاولةِ كشفِ بعضِ الحَقِّ فِيهِ.

والله تعالى هو المستعان على طاعتِه.



توطئة

إذا ما كان جمهرةُ علماءِ التَّفسير أكثرَ اعتناءً بتفسيرِ السُّورةِ آيةً آيةً، أو نجمًا نجمًا، فإنَّ الَّذي يحسنُ أن يقومَ بجانبِهِ إن لم يكن سابقًا عليْه هُو النَّظرُ في السِّماتِ العامّة لمنهاج الإبانةِ عن معانِي الهُدَى في السُّورةِ.

هذا أمرٌ أرَى مِن حُسنِ النَّصيحةِ لِكتابِ الله سُبحانَه وَتَعالَى أوَّلاً، ثُمَّ لِطُلاَّبِ العِلمِ ثانيًا أَنْ يُعنَى بِهِ عنايةً توفّيهِ بعضًا من حقّه. وهَذا ما أَسعَى إلى أَن أقومَ بشيْءٍ مِنهُ، فأعالجَ بعضًا مِن أَمرِهِ. وَقَد جعلتُ أمرِي إلى سُورةِ (تبت يَدا أَبِي لهبٍ وَتبّ) وهي من أوائل السّورِ الَّتي نزلتْ بمكّة، وَنَزلَتْ كامِلة غَيرَ منجّمة. وهي ذات خصَائصُ بيانيّة تتفرّدُ بِها سأكشِفُ -إنْ شاءَ اللهُ تعالى- عن بعضِها.

وجهُ اصطِفاءِ النّظرِ في تأويلِ منهج الإبانةِ في سُورة (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ):

حرَصتُ عَلَى أن أتخذَها أنموذجًا لبيانِ مَدَى أثر مقصدِ السّورة التَّربويّ التَّثقيفِيّ للنَّفسِ الإنسانيّة وموضُوعها فِي اصطِفَاءِ منَهجِ الإبانةِ، والأَساليبِ الَّتي تُحقّقُ ذَلِكَ، لِمَا رَأيْتُ مِن الأهميَّةِ الاجتِماعِيَّةِ للمعرِفة العلميّةِ بِما هُو مَكنونٌ فِيها مِن مَعاني الهُدَى الّتِي يفتقرُ إليها جَمهرةُ المسلمين في عصرِنا هذا، فَإنَّ لِلنظرِ فيها الآن أهميّةً إجتماعِيّةً تصطَحبُ الأهميّةَ العِلميَّةَ لِلنظرِ فيها وَفقَ هذا المنهجِ.

هذه الأهمية الاجتماعيةُ تتمثّل في ثلاثة أُمور:

الأوّل: أنَّها سُورةٌ تُبينُ عن الأثرِ السَّوءِ المُبِير لأبي لهب رأس الكفر والعناد ممثلاً الأنموذج في المجاهدة فِي إيذاء رسُولِ الله - صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم ومن تبعَه في العهد المكيِّ، وعمَّا لقِيه ذلك المُبتدع في هذا الإيذاءِ من تبابٍ وهلاك في الدّنيا، وما سيلقاه يوم القيامة من العذابِ المُهين، وهذا يرسُم لنا حقيقة المصيرِ الذي سَيَلقاه أحفادُهُ الذين اتَّخذوا رسالتهم في حياتِهم إيذاءَ رسُولِ الله ﷺ وإيذاء المُستمسكين بسنتِه ﷺ من أمتِه في زماننا هذا.

والثاني: أنَّها سُورةٌ تُبِينُ عن الأثرِ السَّيّءِ المُدمِّر للمرأة في زوجِها وأهلِ بيتِها وفي أمّتِها ممَّا يستوجبُ حُسنَ البَصرِ بحالِ أمثالِ هذِهِ المرأةِ المُدمّرةِ ما حولَها، وهنّ اليوم في بعضِ الأوطانِ العربيَّةِ والإسلامِيّة غيرُ قليلٍ.

والآخرُ: أنَّك ترَى احتفال ثُلة بالمبالغةِ في تثويرِ ما يُسمّى بتحريرِ المرأة. وتحريرُ المرأة حقٌّ لها علَى غيرِها، وحقٌ لها علَى نفسِها فريضةٌ عليْها أن تحوزَه وأنْ تَعضّ عليْه بِنواجِذِها شَريطةَ أن يُفهمَ تحريرُها فهمًا موضُوعيًّا صوابًا، وأن يُحرَّر مَدلولُ مُصطَلحِ التّحرُّر، وأن يُعيَّن ما الذي يرادُ أَن يُتحرّرَ مِنه، وبأيِّ سبيلٍ يكونُ التَّحرّرُ. ذلك أمرٌ مُهمٌ أهميّةَ تحقيقِ تَحريرِ المرأةِ، لأنّ تحريرَها على وفق الكتابِ والسُّنة هُو جُزءٌ مِن الاستجابةِ لهديِ النَّبِيِّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم حين دعَا أُمَّتَهُ: «**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ**»[1].

فَمِن حُسنِ الاستيصاءِ تحريرُها ممَّا يُخرجُها عَن عِزِها وكرامَتِها، وهَذا لا يكونُ إلاَّ بالالتزامِ بما جاء بِه بيانُ الوحيِ قُرآنًا وَسُنّة، وببيانِ ما يمُكنُ أن يخرجَها مِن هذا، فيجعلَها على مِنهاج أمِّ جميل، أداةَ تَدميرِ زَوجِها وأهلِها. ثُمَّ لِنفسِها.

وهنالك باعثُ متعلقٌ بالنَّظرِ البَلاغِيّ في بيانِ الوحيِ يتمثّلُ في إبرازِ القِيمةِ الاجتماعيّةِ للتفكير البلاغيّ، ولاسيّما فِي عصرِنا هذا الّذِي يُرادُ أن يُربطَ فِيه البحثُ العِلميّ بشقيه: الإنسانيّ والتَّجريبيّ (العمليّ) بحاجةِ المجتمعِ، فيكونُ في خِدمتِهِ وتحقِيقِ تقدّمِه ليكون العلم نافِعًا صانِعه ومَن صُنِع له، فالإسلام لا يعرفُ مبدأ العلمِ للعلمِ والأدبِ للأدب، بلْ كلّ شيْءٍ لِغايةٍ أسمَى.

---

(١) روى الشيخان البخاري في كتاب (أحاديث الأنبياء) ومسلم في كتاب (الرضاع) بسندهما عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: «**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَىْءٍ فِى الضِّلَعِ أَعْلاَهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ**». (النص للبخاري).

التفكيرُ البلاغيّ ليست غايته الرَّئيسة التي يُرمى إليْها الاستمتاعَ الأجرد بفيوض الجمالِ الّلسانيّ والعقليّ، مع أنَّ هذا الاستمتاعَ في نفسِه ذو قيمة تثقيفية ترويضيّة للنَّفسِ الإنسانيّة، لِما فُطرت عليْه النفسُ الإنسانيةُ مِن محبّةٍ للجمال في جوانبِ الحياةِ كلّها محسُوسِها ومعقُولِها، إلاَّ أنّ تبصرَ سِماتِ الجمالِ في تَفنُّنِ اللسانِ في الإبانَةِ عَن مِكنونِ الصّدورِ هو ضربٌ من الإحسان في تربيةِ النَّفسِ وإعدادها للقيامِ بما خلقتْ له من تعميرِ الحياةِ من جهة، والإخباتِ لله ﷻ من جِهةٍ أخرى.

والتفكيرُ البلاغي في البيانِ العَليّ المعجزِ: بيانِ الوحيِ قُرآنًا وسُنّة، وفِي البيانِ العالِي البديع: بيانِ الإبداعِ الإنسانيّ شِعرًا ونثرًا هو الذي يمنحُ النَّفسَ الإنسانيّةَ فيضًا ممَّا يُثوِّرُ عزيمتَها على الفعلِ الخالقِ، وعلى أن تُعلِي الحياةِ في سبيلِ الله تعالى على الموتِ في سبيلِ الله، فالله ﷻ خلقنا لِنحيا في سبيلِه، لا لأن نموتَ في سبيلِه كما يحَسَبُ غيرُ قليلٍ، هو ما شرعَ لنا الموتَ في سبيلِه إيمانًا واحتسابًا إلا إذا تعذَّرَ علينا أن نحيا في سبيلِه إيمانًا واحتسابًا، فحثَّنا على أن نموتَ في سبيلِه تعالى ليتحققَ لغيرِنا الحياةُ في سبيله تعالى، فيكونَ سببًا في تلك الحياة في سَبيلِ الله تعالى العامرة للأرض بِطاعتِه سبحانه.

التَّفكيرُ البلاغيّ في بيانِ الوحيِ قُرآنًا وَسُنّةً يَطمَحُ فِيما يَطمَح إلى أَن يَعملَ علَى تحقِيق شيْءٍ بَالِغٍ مِن هَذَا التّثويرِ النَّفسِيِّ لِلحياةِ فِي سَبيلِ اللهِ تَعالَى، وَتَعمِيرِ هَذِهِ الحياةِ [1].

(١) كلّ ما يتخذه التفكير البلاغيّ في نظرية المعرفة الإسلامية من مناهج نظر في بيانِ الإبداعِ البشريّ شعرًا ونثرًا ليس محطُّ رحالِه فهمَ الكلمة الشَّاعرة، والتلذذَ النفسيّ بذلك الفهمِ، فيكونَ الفهمُ للفهمِ، هذا لا يكون في نظرية المعرفة الإسلاميّة، نحنُ -البلاغيين- نجتهدُ ونجاهدُ أيضًا بل نتعبّد بحسن فهم الكلمة الشاعرةِ؛ ليَكونَ ذلك زادًا إلى ما هُوَ أجلّ وأرفعُ، وأسمى ، وأنفعُ : ليَكونَ سبيلاً إلى حُسنِ الفهم عنِ الله ﷻ وعن رَسُولِه ﷺ فهمًا يدخلنا على ربّنا ﷻ دخولَ الحبيبِ على حبيبِه. =

وَهذَا يُحَقَّقُ مِن زاوِيَتَيْنِ:

- زَاوِيَةِ التبَصُّرِ في منهجِ بيانِ الوحيِ قُرآنًا وَسُنّةً في إفهامنا حقيقةَ النَّماذج المُثلَى لمن قاموا بتحقيقِ الحياةِ في سَبيلِ الله ﷻ، وإعانَةِ الآخرينَ علَى ذلِك، وفي إفهامنا منهجَ تلك النماذجِ وأدواتهم التِي اتَّخذُوها لإنفاذِ ذَلِكَ.
- وزَاوِيةَ التّبصُّرِ في مَنهجِ بَيَانِ الوَحيِ قُرآنًا وَسُنّةً فِي إِفهامِنا نماذجَ مِمّن اتَّخَذُوا الإفسادَ في الأرضِ وإدارةَ الإفسادِ فِيها وَرِعايةَ سَدَنَتِهِ رسَالةَ حياةٍ ومنهجَهم في هذا والأدوات الَّتِي مارسُوا بها هذا الإفسادِ حتّى نكونَ علَى بصِيرةٍ بهم، فلا نُخدعُ بِمعسُولِ ألسنتهم، ولا نبهرُ بما ينشرُونَه من حَولِنا مِن مغرياتٍ تزلّ بها القدَمُ، فلا تكونُ إلا الهلكة.

التفكيرُ البلاغيّ في بيان الوحي مَهمومٌ -عند أهل البصيرةِ النافذةِ- بذلك، أو ينبغِي أن يكون كذلك. وهذا مأمٌ جليلٌ، وحملٌ ثقيلٌ.

ونحنُ هنا بصددِ النّظرِ في الزَّاويةِ الثانية، فإنّ التّخليّة تسبقُ التحلِية، فنغدو إلى التبصّر في بيانِ الوحيِ نموذجًا من أكابرِ أهلِ الإفسادِ في الأرضِ والصّدِ عن سبيلِ الله ﷻ، كيما ندركَ حالَه مَسيرًا في الأرضِ ومصيرًا يَومَ العرضِ، فلا نكون قط من أحفادِه، ولا مِن مُهادِنِيهم أومُداهِنِيهم، وإنْ عَلَتْ أصواتُهم، فأزعَجَت القُلوبَ، وإنْ طالتْ أسواطهم فأدمَتْ الظُّهورَ.

❁ ❁ ❁

= تلك رسالة العقلِ البلاغيّ أو ينبغِي أن تكون كذلك عند من غفل عنها من طلابِ العلمِ. وهذا يجعل العقلَ البلاغيّ العربيّ مفارقًا كلَّ عقلٍ بلاغيّ في كلّ عصرٍ ومصرٍ وجنسٍ.
والذين لا يفرقُون بين العقلين لم يُحسنوا البصر في العقلين نشأة، ومنهجا وأداة ورسالةً وغاية.

عمودُ المنهج

يقُوم منهاجُ النظر هنا على ما أسسهُ عبدُ القاهرِ في كتابيه "أسرارِ البلاغة" و"دلائل الإعجاز" ممثلاً في قولِه: «واعلم أن غرضي في هذا الكلام الذي ابتدأته، والأساس الذي وضعته، أن أتوصّل إلى بيان أمر المعاني كيف تختلف وتتفق، ومن أين تجتمع وتفترق، وأفصل أجناسها وأنْواعها، وأتتبّع خاصّها ومُشَاعَها، وأبين أحوالها في كرم مَنْصبها من العقل، وتمكُّنَها في نِصَابه، وقُرْب رَحِمِها منه، أو بُعدها حين تُنسب عنه، وكَوْنِها كالحَلِيف الجارِي مجرى النَّسَبَ، أو الزَّنيم الملصَق بالقوم لا يقبلونه، ولا يمتعضون له ولا يَذُبُّون دونه »[(١)].

وقولِه: «وإذ قد عرفْتَ أنَّ مدارَ أمرِ "النظْم" على مَعاني النحو، وعلى الوجُوهِ والفُروق التي من شأْنها أَنْ تكونَ فيه، فاعلمْ أنَّ الفروقَ والوجوهَ كثيرةٌ ليسَ لها غايةٌ تقفُ عندها، ونهاية لا تجد لهال ازدياداً بَعْدها ثم اعْلَمْ أنْ ليستِ المزيةُ بواجبةٍ لها في أنْفُسِها، ومِنْ حيثُ هي على الإِطلاق، ولكنْ تعرضُ بسببِ المعاني والأغراضِ التي يُوضعُ لها الكلامُ، ثم بحَسَبِ موقعِ بعضِها من بعضٍ، واستعمالِ بعضِها معَ بعضٍ»[(٢)].

فهذان نصّان مؤسِّسان منهجَ النَّظر البلاغيّ في البيان البليغ سواءٌ كان بيانًا عَليًّا معجزًا أو بيانًا عاليًا بديعًا.

وهذا المنهج يجمع بيْن خاصتي منهج البحثِ العلمي(الاستقرائيّ المقابل للمنهج الاستدلاليّ) ومنهج قراءة النَّصّ (المنهج البياني).

---

(١) أسرار البلاغة. تأليف عبد القاهر الجرجاني، (ت:٤٧١هـ) قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، ط: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ص ٢٦.

(٢) دلائل الإعجاز تأليف عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، ط: (٣) سنة ١٤١٣هـ، مطبعة المدني بجدة مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، ص ٨٧.

ومن ثَم فإنّي أعمَدُ هنا إلى النَّظرِ في سَورةِ (المسد) مستبصِرًا ما اتخذته السُّورة مِن أَساليبِ الإبانةِ عمَّا هُو مكنونٌ فيها مِنْ معاني الهُدَى، وعلاقتِه بمقصُودِها الّذي تهدِي كلَّ معانِيها الكُليّةِ والجُزئيّة إليْهِ. وعلاقتها بمعانِي الهدَى في سورٍ أخرى تُجاورها أو تقابلها موقِعًا ووظيفةً في نسقِ التِّلاوةِ.

وإذا ما كانَ لِلقرآنِ الكريمِ كلِّه معنًى مركزيٌّ هُو محورُه المتمَثِّلُ فِي قَولِ الله ﷻ فِي سُورة "الفاتحة": ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإنَّ أهلَ العلمِ بِكتابِ الله ﷻ على أنّ لكلِّ سُورةٍ مِن القرآنِ مقصُودًا أعظمَ هُو مِحورُ معانِيها، وكلُّ معنًى كليّ مِن معانِي مَعاقدِها (فصُولها) مشدودٌ إلى هذا المعنى المحوريّ (المقصُود الأعظم) على نحوٍ يكونُ غيرَ خفِيّ علَى متبصّر، وكلّ معنًى جزئيّ أيضًا هو مشدودٌ إلى ذلك المعنَى المِحوَرِيِّ المَركزِيّ وإنْ كان أشدَّ خفاءً علَى غيرِ قليلٍ مِن النّاظرين مِن طُلابِ العِلم، وإنْ وَرَدَ هذا المعنَى الجُزئيّ على نَحوِ الاعتراضِ أو الاستطرادِ.

وأهلُ تأويلِ البيان القرآنيّ وتدبرِه متفاوتون في العناية بإبرازِ هذا المقصُود الأعظم في بيانِهم، وإن كنت أذهبُ إلى أنّ الأئمة منهم مُدركون ذلك المقصُودَ الأعظمَ، وإن لم يصرِّحوا بتعيينِه في تفاسيرِهم ؛ لأنّهم مَهمُومُون ببيان أصلِ المعاني التكليفيَّة عقيدةً وشريعةً. وهي معانٍ لا يتوقف إدراكُ أصلِها على تعيين المقصُود الأعظمِ ؛ لأنَّ العرفانَ به مُعينٌ على البصرِ بشيْءٍ مِن المعاني الإحسانيّة الزَّائدة على المعانِي التكليفيّة عقيدةً، وشَريعَةً.

ومِمَّن اجتَهدَ من أهلِ العلمِ في الالتزام بتعيين المقصُودِ الأعظم لكلِّ سُورةٍ على ما استنبطه باجتهادِه في مفتتح كل سُورة "برهانُ الدين البقاعي"(ت:٨٨٥هـ) فِي تفسِيرِه: (نظم الدُّرر فِي تناسبِ الآياتِ والسُّور) (١).

---

(١) لم يكن البقاعيّ فريدًا في النظر إلى مقصُود السور التي يقُوم بتأويلها، إلا أنه تفرّد بأمرين فاقَ بهما من سبقَه: =

وممّا يَحسُنُ استحضارُهُ أنَّ هنالك فرقًا بيْن "المقصُود الأعظم":(المعنى أو الغرضِ المحوريّ) وأغراضِ السُّورة؛ لأنّ أغراض السّورة إنّما هي أغراضُ الموضوعات التي تتكونُ منها السّورة، ولا سيّما الطُّوال والمئين، وهي أغراضٌ مَرحَلِيَّةٌ، بينما "المقصُودُ الأعظمُ"غرضٌ كليّ محِوَريّ ليس خاصًّا بموضُوع من موضوعاتِ السّورة ، وإن تفاوتَ ظهورُه في بعض معاقد السّورة أو بعضِ آياتها، فهو تفاوتُ ظهورٍ لا تفاوتُ حضُور.

هذه أصُولٌ حرًى أن نكونَ علَى ذكرٍ منها، وأن تكونَ حاضرةً في القلب ولا تغيبُ ولا تَغيم قطُّ في تدبرِنا واستنباطِ معانِي الهدَى في أيّ سُورةٍ مِن سورِ الكتابِ الكريم.



=الأول: اطراد المنهج وقيامه في كلّ سُورة من سُور القرآن.

الآخر ربطه بين علم التناسبِ وعلم المقاصد، وهذا لا تجده عند من سبقه ممّن كانت لهم بتناسب القرآن عناية كالرازيّ.

والربط بين علمي التناسبِ والمقاصد أمرٌ مهمٌ جدًا، ذو أثرٍ بالغٍ في توجيه القلبِ في حسن الفهم، لأنّ علم المقاصد قائمٌ مقامَ الضبط والتوجيه في أثناءِ البَصر بعلاقات التَّناسب التركيبيّ والترتيبيّ وتوجيه حركتها توجيهًا بيانيا موضُوعيا بعيدًا عن الإسقاط من جهةٍ، وبعيدًا عن التجزئة مِن جهةِ أخرى، وهما معا من أكثر الأشياء إضرارًا بمجاهداتِ التأويل.

مقصُود سورة "المسد"

مقصُودُها تقريرُ أمرين رئيسين تحتاجهما الدَّعوة في باكر أمرها، وفي مَسيرِها كلِّهِ مِن بعدُ، هذان الأمران:

الأولُ تقرِيرُ جلالِ الألوهيّةِ في قلوبِ العبادِ.

والآخر تقريرٍ ثقة أتباع النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبه وسلّم في انتِصار دعوة الحق وإزهاقِ الباطلِ أهلِه ثقة تفتح القلوبَ للإسلام قبلِ أن تفتح البلدان.

وهذا التقرير أفهمه البيانُ القرآنيّ من خلالِ أسلوبِ الإنباء بإهلاك أهل الكفر وأعوانهم في الدُّنيا والآخرة إهلاكًا لا تبقَى معه لهم شوكةٌ.

هذا الإنباءُ مُمَثَّلٌ في تَبابِ رأسِ الكفر أبي لهب وامرأته وفِي هلاكِه. فَلن تنفعَه قُربَى نسبٍ، وإن علا، فالنبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبه وسلّم وهو مَن هو لا يملِكُ أن يدفعَ عَن الكافرِ مِن ذوي نسبِهِ ؛ لأنّه ﷺ عبدٌ لا يَملكُ من الأمرِ شيئًا. بل الأمرُ كلُّه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا الإنباءُ الحقّ بإهلاكِ رأسِ الكفرِ يلزمُه الإنباءُ بنصرِ الحقّ وأهلِه، ممّا يقرّر الطمأنينة في قلوبِ القائمين له، والقائمين به، فإذا كلُّ بَلِيّة عنده هي تؤول يقينا إلى عطيّة ما كانوا للحقّ قائمين، وما كان به وجودهم.

تلاحظ المعاني وتناصرها بين سورة "المسد" وسور أخر:

وكما كانت سورة (المسد) تقابلُ سورة(النصر) فإنّها تنظر بعين الرِّعاية والتناصر معانِي الهُدى في سورة (الكافرون) وسورةِ (الكوثر)، وسورة (الماعون) وسورتي (قريش) و(الفيل) وسورة الهمزة.

علاقة سورة (المسد) بسُورة (الهمزة):

سورة (الهمزة) سورة مكيّة تعنى ببيان أثرِ الاعتدادِ بالمالِ والجاهِ في التَّصدّي لدعوةِ الحقِّ، وبِبيانِ أثرِ هذا الاعتدادِ في الاطمئنان بهذا المال، وفِي الحُسبان أنَّ ذلك

هو السبيلُ إلى تحقيقِ دَيمومة العِزّة والسُّلطانِ، وكيف أنَّ ذلك يحملُه على إيذاءِ النَّاسِ بلسانه ويدِه همزًا ولمزًا، وبِبيانِ ما سيكونُ عليه مصيرُه في الآخرةِ.

وهذا كما ترَى قريبٌ جدًا من حال أبي لهب، بل إنّ حالَ أبي لهب هو النموذجُ الذي تنطبقُ عليه سُورةُ (الهمزة) فسورة (الهُمَزَةِ) وسورة (المَسد) تتلاحظان.

وتلاحظُ المعاني على مستوى الجملةِ والآيةِ والنَّجم والمَعقد والسّورة من خصائص البيانِ القرآنيِّ، فأنت لا تكاد تجدُه في بيان آخر على النَّحو العليّ الذي يتراءَى لكلّ ثاقب النّظرِ محيطه.

هكذا تجدُ هذه السُّور تتلاحظُ، وتتلاقى في مدلول منطوقها حينًا أو مدلول مفهومها حينًا وهذا وجه من وجوه المعنى في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر:٢٣).

علاقة سورة المسد بسورة (الفيل) وسورة (قريش):

إذا ما نظرت في كلٍّ من سورتي (الفيل) و(قريش) رأيت في الأولى (سورة: الفِيلِ) تصويرًا لما حلّ بمَن عاند الحقَّ وبغى على أهلِه واستكبر، وصدّ عن سبيلِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،ورأيت في الثَّانية(سُورةِ:قريش) تصويرًا لما تفضَّل به الله تعالى على أهلِ البيتِ الحرام وسدنته وحماته من رعاية وعناية وحفظ.

فهلاك أصحابِ الفيل هو المُمثّل لهلاك أهل الباطلِ الصَّادّين عن الحقّ من غيرِ قوم رسُول الله ﷺ، وهلاكُ أبي لهب وامرأتِه هُو المُمثل لهلاك أهلِ الباطلِ الصّادين عَن سَبيلِ الله تعالى من قومِ رسول الله ﷺ.

وفي سورة (النّصر) تصويرٌ لما كان من تفضل ربانيّ على أهل الحقّ في مبعثِ رسُولِ الله ﷺ بالنصرِ والفتح. وهو معادلٌ لما كان لقومِه ﷺ قبل المبعثِ مِن رعايةٍ وعنايةٍ وحفظٍ.

علاقة سورة المسد بسورة (الماعون):

وأنت إذا نظرتَ في سورة (الماعون) رأيت أبا لهبٍ وامرأتَه هما النَّموذج الجليُّ الكاملُ للذي يكذِّب بيوم الدِّين والّذي يدعُّ اليتيمَ، والّذي لا يحُضُّ على طعامِ المسكين، فقد كان عظيمَ الشُّحِّ.

علاقة سورة المسد بسورة (الكوثر):

وأنت إذا نظرت إلى سورة (المسد) رأيت أنّها دالَّة بمنطوقها على هلاك الكافر ودالَّة بلازمِها على نصرةِ النبيّ ﷺ وأتباعِه، فدلَّ لازمُها على قَولِهِ تعالى جدّهُ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ ودلَّ منطوقُها على ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ وقد كان أبو لهبٍ أبترًا، فقد هلك وخسِر خُسرًانًا مُبينًا، ولم يُغنِ عنه مالُه وولدُه شيئًا البتّةَ.

هكذا تتلاحظُ معاني سورة (المسد) وسورة (الكوثر) مثلما تلاحظت معاني سورة (الماعون).

علاقة سورة المسد بسورة (الكافرون):

وأنت إذا نظرت في سورة (الكافرون)، رأيت منطوقها دالاً على أنّ رؤوس الكفر لن يؤمنوا، وهذا ما دلّت عليه سورة (المسد) فرأسُ الكافرين أبو لهب وامرأته لن يؤمنوا؛ لأنَّه سيصلى نارًا ذات لهب وامرأته حمّالة الحطب في جيدِها حبلٌ مِن مسد.

علاقة سورة المسد بسورة (النصر):

إذا ما كانتْ سُورة "المسد" قَد جاءت إِنباءً بتبابِ أهل الباطل مُمثلا في رأس الكفر أبي لهبٍ وامرأتِه وكان هذا يحمل في رحمه إنباءً بنصر الحق، وعلوّ أهلِه فإن سورة "المسد" تؤكد بمفهومها ما جاء مصرّحًا به في السّورة قبلَها "سورة النّصر" : سّورة "المسد" جاءت بُشرَى لرسول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم

وأتباعه وهم يومئذٍ قليلٌ مستضعفون بأنّ النَّصر لهم، وأنّهم على الحقِّ الّذي سيبسطُ سلطانَه وأنَّ من كان مِن حزبِ أبي لهبٍ وامرأته ليس لهم إلا الخسرانُ، وإنْ عَظُمَ فيهم المالُ ومتاعُ الدُّنيا بأسرها، فلن يُغني عنهم شيئًا، فلا ينشغلنَّ أهلُ الإسلام بجمع متاع الدُّنيا إلاّ بما يكون عونًا على نصرِ الحقّ وبسطِ سلطانِه وتحقيق استغنائهم عن كلّ من ليس مِن الإسلام في شيْءٍ.

ومن وجوه التَّلاحظِ والتَّرابطِ أنَّ سورةَ (النّصر) وسورة (المَسد) بمثابة الاستئناف البيانيّ من آخر سُورة (الكافرون)، فهما جوابٌ عن سؤال استحضره قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فكأنّ النبيّ ﷺ سأل فما جزائي ؟ فقيل له جزاؤك النّصر، والفتح، فقال: وما جزاء أعدائي قيل الهلاك والخسران وقدَّم مثُوبته بالنّصر والفتح على عقُوبة عدوّه بالتبّ والخسران نشرًا للبشرى، وليقع النّبأ عَن مَثُوبَتِهِ ﷺ مؤكّدًا حيثُ ذُكِرَ مُصرَّحًا بِه فِي سُورةِ "النّصر" ومُلَوّحًا به فِي سُورةِ "المسد" [(١)].

وأمرٌ آخر سُورةُ "النّصرِ" تَلتفِتُ إلَى قَولِ الله ﷻ: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ وسُورة (المسد) تَلتَفِتُ إِلَى قَولِه ﷻ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ هذا أشبه بردِّ العجزِ على الصدرِ من وجهٍ وبالإجمالِ والتفصيلِ من وجهٍ آخر.

ولكلٍ من الأسلوبين وظيفتُه فِي إيصَال المعنى إلى القلبِ بأحسن صُورة مِن اللفظِ وتمكينه فِيه وتوطينه، ليَفعلَ فِيه ما يجعلُه قلبًا قادرًا على أن يفعلَ ما يرَاد له أن يفعل في هذه الحياةِ مما يُرضِي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

تبيّن لك أنّه إذا ما كانت سُورةُ "النّصر" من أواخرِ ما نزلَ من كتابِ ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علَى نبيّنا ﷺ ففهم منها سيدنا ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّه إنباء بقربِ أجلِ النبيّ ﷺ [(٢)]

(١) مفاتيح الغيب للرازيّ، ط(٣) ١٤٢٠هـ، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ج٣٢ص٢١١.

(٢) روى البخاريّ في كتاب(المغازي) من صَحيحِهِ بِسَنَدِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِى مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَى مَعَنَا، وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ فَقَالَ إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ=

بل جاء في السُّنة أنّ النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم هو الذي أشار إلى ذلك (١) وكانت سُورةُ "المسد" من أوائل ما نزل فِي "مكة" وعند وقُوع أمرٍ خاصٍّ كان من أبي لهبٍ فإنَّ هذا لم يك قطُّ عاملا من عوامل تباعد ما بيْن السُّورتين مضمونًا ومقصُودًا، ممّا يُبين لك أنَّ المضامين والمَقاصد لا تتوقف علاقاتُ التَّواصل والتَّرابطِ فيما بيْنها على أوقاتِ النُّزول ومساقاته المقاميّة، بل الأمرُ مردّه إلى ما وراء ذلك.

=عَلِمْتُمْ. قَالَ فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ، وَدَعَانِى مَعَهُمْ قَالَ وَمَا رُئِيتُهُ دَعَانِى يَوْمَئِذٍ إِلاَّ لِيُرِيَهُمْ مِنِّى فَقَالَ مَا تَقُولُونَ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ ...﴾ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَّ وَنَسْتَغْفِرَهُ، إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ لاَ نَدْرِى. أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا. فَقَالَ لِي يَا ابْنَ عَبَّاسٍ أَكَذَاكَ تَقُولُ قُلْتُ لاَ. قَالَ فَمَا تَقُولُ قُلْتُ هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهَّ ﷺ أَعْلَمَهُ اللهَّ لَهُ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ قَالَ عُمَرُ مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلاَّ مَا تَعْلَمُ.

ما قالَه جمع الصحابة في معنى السورة هو المعنى الظاهر الجمهوري، وهومعنى متعلّق بالتكليف، ولذا التفت إليْه الصحابة،لأنه مهمون بالمعاني التّكليفية، ليقوموا بحق ما فيها من تكليف يثمر لهم جليل تشريف.

وما قالَه ابن عباس هو من قبيل المعنى الإحسانيّ للسورةِ.

(١) روى أحمد في مسنده بسنده من حديثِ ابن عباس حدثنا محمد بن فُضَيل حدثنا عطاء عن سعيد بن جُبَير عن ابن عباس قال: «لما نزلتْ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قال رسول الله ﷺ: « **نُعيتْ إليّ نفسي**»، بأنه مقبوض في تلك السنَة».

(قال أحمد شاكر في تعليقه على مسند أحمد عن هذا الحديث:إسناده صحيح، (مسند أحمد. تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط(١) ١٤١٦هـ، دار الحديث،القاهرة ج٢ص ٤٣٥ ، حديث رقم: ١٨٧٣

وفي مسند الدارمي في " باب وفاة النبيّ ﷺ " بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ دَعَا رَسُولُ اللهَّ ﷺ فَاطِمَةَ رَضِىَٱللَّهُعَنۡهَا ، فَقَالَ: « **قَدْ نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي** »، فَبَكَتْ، فَقَالَ: « **لا تَبْكِي فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لِحَاقًا بِي**»، فَضَحِكَتْ... الحديث (إسناده صحيح، وهلال بن خباب وثقه أهل العلم).

(سنن الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الدّارانيّ، ط(١) ١٤١٢هـ، دار المغني للنشر والتوزيع، السعودية، ج١ص ٢١٦- ٢١٧)

ومِمَّا يحسُن تبصُّرُه أنّه إذا ما كانت سورة (النصر) بما تحمِلُه من بشرى الفتح وبسط سلطان الإسلام، وكسرِ شوكةِ أهلِ الكفران، ودخول النَّاسِ فِي دينِ اللهِ أفواجًا، قد نزلت في خواتيم بعثتِه ﷺ فإنّ ما تضمنته من البشرى لم يكن ليبقَى إلى آخر البعثة، بل أنبأ الله سبحانه وتعالى بِه نبيه ورسُوله ﷺ تلويحا في مفتتح البعثةِ في سورة (المسد)، فبدأ بالبشرى تلويحًا، وختم بها تصريحا. وهذا من فيضِ ربوبيته سبحانه وتعالى، وكريم رحيميته بصفيه وخليلِه ﷺ (١).



(١) من السنن البيانية للقرآن الكريم العامة الحاضرة في بيانِه جميعًا تصريفُ الدّلالة على المعنى، ولا سيّما المعاني المركزية فيوردها في سياقٍ تصريحًا، ويوردها في سياقٍ آخر تلويحا يعمق سفرها، ويبسط انتشارها في القلوب الواعية، حاملة فيضًا من العطاء يعلو على ما أعطته في دلالتها التصريحية، ومما يُلاحظه أهل البصر بالبيان القرآني أن ما يدلّ عليه تلويحا يحمل فيوضًا من المعاني الإحسانية التي يثقفُ بها النفوس، فتزدادُ إقبالَ اسشرافٍ وتشرفٍ، وهذه المعانِي المدلولُ عليْها تلويحًا لاتخلَقُ على كثرة الردّ بل يزيدها الرّدُّ إثمارًا وفاعليّة في القُلوبِ المعافاةِ من داءِ الغفلةِ.

علاقةُ التقابلُ الوظيفيّ
بيْن سُورةِ (المسدِ) وسُورةِ النّسَاء

إذا ما كانت سُورة "المسد" شديدة الملاحظة لمعاني الهُدى في السّورِ التي سبقتها مباشرة في نسق التلاوة فإنّ هذه السّورة لتلحظ أيضًا سورة في أول نسقِ التلاوة تلحظ سورة (النساء).

سُورةُ (النّسَاء) سورةٌ مدنيّةٌ هي الرّابعة في أولِ النسقِ الترتيليّ، بينما سُورة (المسد) المكيّة الرابعة من آخر النَّسقِ التّرتيليّ وهذا التقابل المكانيّ في نسقِ التلاوة يناظر تقابلاً وظيفيًّا: سُورة (النّساء) جاءت لتُبِينَ عن منهاج بناءِ الأسرة المُسلمة على دعامتينِ عظيمتين: العدلِ والرّحمة وتُبِين عَن أحكام ذلك البناءِ وضوابطه ومظاهره.

وأنت إذا ما تابعت التّبصّر في معاقد (فصُول) سورة (النساء) وآياتِها ألفيت قيمة العدل وقيمة الرّحمة حاضرةَ حضورًا ظاهرًا حينًا وخفيًّا حينًا.

وسورة (النساء) جاءت لبيان أثر المرأة في هذه البناءِ.

وسورة (المسد) جاءت مُبينةً أثر المرأة في هدم الأسرة وخسرانها، فليس ثَم امرأةٌ هي الشؤم على زوجها وبيتها كمثل ما كانت امرأة أبي لهب، فبين سورة (النساء) وسورة(المسد) مقابلةٌ كليّة. (١)

---

(١) البلاغيون معنيون بدراسة التقابل بين مفردتين: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣] ويسمونه طباقًا، وبدراسة التقابل بين مجموعة مفردات في جانب ومجموعة في آخر ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل:١-٢] ولكن لم يلتفت معظمهم إلى تقابل المواقفِ والأغراض، فَهلاَّ عاملوا هذا الأسلوب الحاضر كثيرًا في البيانِ القرآني معاملتهم أسلوب التشبيه: جَعلوا منه تشبيه مفرد بمفرد، وتشبيه متعدد بِمتعدّد، وتشبيه مركبٍ بِمركّبٍ.

وهلا نظروا إليه نظرَهم أسلوب الفصل والوصل:

كان فصل ووصل بين جملتينِ، وفصلٌ ووصلٌ بين قصتين.

فبَيْن السورتين تقابلٌ وظيفيّ: سُورة "النساء" تهدِي إلى عوامل البناء،وسُورةُ "المسد" تهدي إلى عوامل الهدم، وهذا من باب هداية النَّجدين، فكلّ يختارُ لنفسِه ما هو أحبّ إليها. إن بناءً وإن هدمًا.

وإذا ما كان في هذا تقابلٌ، فإن فيه أيضًا وجهًا أسلوبيًّا آخر: فيه ردّ عجزٍ على صدرٍ ردًا معنويًّا، فإن ردَّ الصَّدر على العجز لا يحسُن أن يحبس النظر فيه على ما جاءَ بِه الأقدمون من البلاغيين والنّقاد مُمَثَّلا فيما جاء به ابن المعتز إذ جعله رابع خمسةٍ هي عمدُ البديع، وجعل الرَّد ردَّ كلمة في آخر البيتِ على أخرى تلاقِيها لفظًا فقط أو لفظًا ومعنى[1].

فردُّ العجز أضحَى على يدِ بعضِ علماء التفسيرِ أرحبَ ، فرأينا ردّ عجزِ معقدٍ على صَدرِه، ورأينا ردَّ عجزِ سُورةٍ على صَدرها، بلْ إن "برهانَ الدّينِ البقاعي" (ت ٨٨٥هـ) عُنِي في تفسِيره "نظمِ الدرر"عنايةً بالِغَةً بردّ آخر القرآن علَى أولِه منطلِقًا من أنّ النَّجم في ترابط آيِهِ وتناسبِها كالآية، والمعقدِ في ترابطِ نُجومهِ وتناسبِها كالآية، والسُّورة في ترابط معاقِدها وتناسبها كالآية، والقُرآن كلَّه في ترابطِ سُورِه وتناسبها كالآية، فإذا ما كنت الآية يردّ عجزها على صَدرها، فالقُرآن يردّ عجزه على صدرِه، ليتشكل البناء الدائريّ لحركة المعنى القرآنيّ.

لو أنهم فَعلوا لكان هذا أعلى، ولكان عندنا مقابلة مفرد بمفرد(طباق) ومقابلة متعدد بمتعدد، وهو الذي أطلقُوا عليه مقابلة، ومقابلة غرضٍ بغَرضٍ وموقفٍ بموقفٍ وسورةٍ بسُورة...
وهذا فيما أذهب إليه أعلى وأجدَى.

(١) البديع لابن المعتزّ تحقيق أغناطيوس كراتشفوفسكي،ط(٣) ١٤٠٢: دار المسيرة، بيروت ص ٤٧.
وانظر معه:البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، جميل عبد المجيد،ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة دراسات أدبية سنة ١٩٩٨م ص:١-٣-١٤
وانظر بحث بلاغة رد الأعجاز على الصدور في القرآن الكريم، أحمد العثمان، جامعة الإمام محمد بن سُعود الإسلاميّة، كلية اللغة العربية (ماجستير)سنة ١٤٣٠هـ،الفصل الثالث، ص:١٩٥

وفكرة البناء الدَّائري لحركة المعنَى القرآنيّ فكرة رئيسة عند البقاعي في تفسيرِه، وبهذا تظهرُ فضيلة "الحالّ المرتحل" فليس القارئ وحده هو الحالّ المرتحل، بل المعنَى القرآنيّ أيضًا هو الحالّ المرتحلُ.

ومن خصائص الإبانة في سُورة (المسد) أنّها جاءت في أسلوبٍ خبريّ يحملُ نبأً عن غيبٍ واقع لا محالة، ممّا يجعل بيانَها آية قطعيَّةً على إعجاز القرآن الكريم، بمضمونها من جهة الإنباءِ بالغيبِ، وبنظمِها على هذا النَّحو البليغ.

ولذا كان الأعلَى عندي الذَّهابُ إلى أن الجملة الأولى من السّورة ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ جملة خبرية لفظًا ومعنًى أريد بها إلى إنباء بغيبٍ مستقبلٍ يقطع بالتحدّي والعجزِ المطبقِ لكلّ من يُمكن أن ينازع استكبارًا في القولِ بإعجازِه بلاغةً.

أنبأ القرآن بهذا في مفتتح الدَّعوة، ولم يستطع أبو لهبٍ وامرأته أن يُكَذِبَا خبرَه، فيعلنا أنّهما قد آمنا بمحمد ﷺ وبما جاءَ بِه، لم يستطع أبو لهب وامرأته ذلك، ممّا دلّ دَلالة قاطعة على أنّه صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم لا يقُول ذلك من عندِ نفسِه، وأن أبا لهبٍ يعلم ذلك علم يقين ولكنه يستكبر. وجحدُه بالغ حدَّه الأعظم من الحمق: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

هذا الأسلوب الخبريّ الصّرف الذي اتخذته السُّورة به يتحقّقُ المقصودُ الأعظم الذي بينته في مفتتح القول.

والقولُ بأنَّ الجملةَ الأولى من سورة (المسد) خبرٌ صِرف مما ذهب إليه بعضُ العلم من أولئك السهيليّ والفراهي. وهو الأعلى عندي[1].

---

(١) الروض الأنف للسهيلي (ت:٥٨١هـ) تحقيق عمر عبد السلام السلاميّ،ط: (١) ١٤٢١هـ: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٣ص ١٧٦، تفسير نظم القرآن للفراهي: الطبعة الأولى، الدائرة الحميدية – الهند: سنة ٢٠٠٨ م/ ص ٥٧٥.

أمَّا القولُ بأنّ قولَه تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ خبرٌ أريد به الدّعاء فقولٌ مرجوحٌ مِن أنّه لا يتناسَبُ مع مقصُودِ السُّورةِ كما يتناسَبُ القولُ بأنَّه أسلوبٌ خَبريٌّ صِرفٌ(1).

وفوق هذا القول بأنّه خبرٌ أريدَ به الدُّعاء كمثل ما جاء في قولِه تعالى: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة:٣٠] ﴿...يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤] يحتاج معه إلى تأويل لا يتناسبُ مع مقصُود السورة (2).

فالذَّهابِ إلى أن جميع آي السّورة خبرٌ صرفٌ هو الْمستَعلّى عندِي(3).

البناءُ النصّي لسورةِ (المسد):

في تقسِيم القُرآن إلى سُورٍ، وتسمية كلّ قسمٌ "سورة" وفي تفاوت هذه الأقسام مقدارَ آياتٍ، وفي تنوعها في الافتتاح ما يهدِي إلى أنَّ لكل قسمٍ من هذه الأقسام خصُوصية موضُوعية.

والخصُوصيّةُ الموضوعيّةُ تقضِي كما هو السُّنّة في الخطابِ أن يَكونَ لكلٍّ منهجَه في الإبانة، له ما يجمعُه مع قبيلِه من جهةٍ،وله ما يميزه عنه من جهةٍ أُخرى.

---

(1) ينظر في القائلين بذلك: مفاتيح الغيب للرازي / ط(٣)سنة ١٤٢٠هـ، دار إحياء التراث العربي – بيروت:ج ٣٢ص ٣٥٠، والبقاعي في نظم الدُّرر، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ج ٢٢ص ٣٣١.

(2) تنظر التأويلات التي قيلت في أسلوب الخبرِ من الله تعالِى الذي أريد بِه "الدعاء" في تأويلِ قولِه تعالى: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ مفاتيح الغَيب للرازي (م.س) ج ١٢ ص٣٩٤.
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ت:٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش،ط:(٢) دار الكتب المصرية –القاهرة، عام ١٣٨٤هـ،ج ٦ص٢٣٩.

(3) يذهبُ بعضُ أهل العلمِ إلى أنّ (ما) في قولِه تعالى ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ يحتمل أن تكون استفهامية على معني أي شيء أغنى عنه ماله، وهذا الاستفهام مآلُه التقريرُ بالنفي، فهو إنشائيّ لفظًا خبريّ معنى، والاعتداد إنما بما يؤول إليه اللفظ، ولذا قلتُ إنّ السورة لم يأتِ فيها شيءٌ من أسلوبِ الإنشاء الطلبيّ أو غير الطلبيّ.

ذلك ما يهدِي إليْه النَّظر المستبصرُ.

ومِمّا يهدِي إليْه -أيضًا- أنّ الأئمة من أهلِ العلم بكتابِ الله ﷻ لا يليقُ بمقامِهم أن يغفلوا عن مثلِ هذا، فهم أعرفُ بمناهج الإبانة ومُقضياتها، والنَّصيحة لكتاب الله ﷻ التي هي من الدّين يحملُ على أن يكون لهم التفاتٌ إلى هذا.

وهذا الالتفاتِ ليس بلازم أن يُسجَّل في مسطورٍ أو ملفوظ، بل يكفيه أن يكون التفات عرفان وتبصّر.

وهذا ما يحملُني إلى أن أزعم أنَّ الوعي بأنّ كلّ سُورةٍ لها خصوصيتها المضمونية، والأسلوبية أمرٌ لا يغفُلُ عنه الأئمة.

أَلَـمْ ترَ إلى ما أثرِ عَن سيّدِنَا عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قَولِه: «**إِذَا بَلَغْتُ آلَ حَامِيمَ فَقَدْ وَقَعْتُ فِي رِيَاضٍ أَتَأَنَّقُ فِيهِنَّ**» وَفِي رِوَايَةٍ: «آلُ حَامِيمَ دِيبَاجُ الْقُرْآنِ»[(١)].

فهذا آيةٌ على أنّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد أبصر خصُوصيتهن موضُوعًا، والخصُوصية موضوعًا تقتضي الخصُوصية الأسلوبيّة والنّظمية[(٢)].

---

(١) المصنف في الأحاديث والآثار، لأبي بكر بن أبي شيبة،(ت: ٢٣٥هـ) تحقيق: كمال الحوت، ط:(١) ١٤٠٩هـ، مكتبة الرُّشد، الرّياض، ج ٦ ص ١٥٣ (رقم: ٣٠٢٨٥).

وانظر معه: مختصر قِيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر، لأبي عبد الله المَرْوَزِي (ت: ٢٩٤هـ) اختصار المقريزي،ط(١) ١٤٠٨هـ فيصل أباد -باكستان، ص ١٧٥، والطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م فَضائل القرآن، لأبي العَبَّاسِ الْمُسْتَغْفِرِيُّ (ت: ٤٣٢هـ) تحقيق: أحمد بن فارس السلوم،ط(١) ٢٠٠٨م، دار ابن حزم، ج ٢ص٦٠١.

وانظر معه تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط(١) سنة: ١٤١٩هـ (أول سورة غافر) ج ٧ص ١١٤.

(٢) عُني شَيخنا أ.د. محمد أبو موسى بالتبصر في سور آل حم، ونشر ذلك في عدة مجلدات وافرات بالخير، عُنِيَ بأن يبرز لنا خصوصياتها المضمونية وما اقتضته من خصوصياتها الأسلوبية، وأن يبرز لنا خصوصياتِ كل سورة، وما يميزها عن أترابها من آل حم، وأن يُعني بلفتنا إلى ما اتسمت بِه كلّ سورة من النّظم الكلي الذي يدور حول معنى مركزيّ، فسعى بنا إلى منهجٍ يحملُ ذوي العزائم إلى السيرِ في هذا السبيلِ. فجزاه الله عنا خير الجزاء.

ومن ثمّ لا أرى صوابًا أن يُظَنَّ ظانٌّ أنَّ القولَ في البناءِ الكليّ (النّصِيّ) للسُّورة أمرٌ مستحدَثٌ، فالنَّظر النَّافذ في ما أثرَ عن أهلِ العلمِ يُدرك أنَّ الأمرَ قد استولِد من قبلُ بكثيرٍ، ولاسيّما في مجال تأويل القرآن، وأهلُ العلم بالبيان على أنّ العلاقات بين الأغراضِ في بنية الكلام لا بُدَّ أن تكونَ ذات تواصلٍ وتلاحظٍ(١).

إنَّ العنايةُ بِحُسنِ الاطرادِ والتناسب والتلّطف في الانتقال من غرضٍ مرحليّ إلى آخر، ومن جهةٍ إلى جهةٍ والصَّيرورة مِن مقصدٍ(مرحليّ) إلى مقصد (مرحليّ) في بناء النصّ لا تقلّ شأنًا عن العناية بما يلاحظُ في النَّظم مِن حُسن الاطراد من بعض العبارات إلى بعض ومراعاة المناسبة ولطف النقلة(٢).

سُورةُ (المسدِ) على قلّة عددِ آياتِها وكلمِها هي معقدان: المعقدُ الثاني فيه بيان وتفصيلٌ للأول:

المعقد الأوَّل: هو الآية الأولَى وحدها:﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴾.

---

(١) يقُول حازم الأنصاري مبينًا عن أنّ"الأسلوب" هو الصورة التي تحدثُ من خلال علاقاتِ الأغراضِ بعضِها ببعض في بناء الكلام، فهو هيئة تحصل من التأليفات المعنوية بيْن الأغراضِ المرحلية للكلام، بخلافِ النظم، فهو الصورةُ التي تحصلُ من التأليف اللفظية. وهي التي عُنِيَ بِها عبد القاهرِ في كتابِه الدلائل.

فالأسلوب عن د حازم هو المختصّ ببنية النصّ، وهو ما يُسميه بعضهم بالنّظامِ، ويُسميه المتأخرون بالحبك، ممثلا لشق عوامل التّماسك النصّي، فأسلوب حازم هو الحبك عندهم.

والنظم هيأة تحصل عن التأليفات اللفظية،وهو الذي يسميه المتأخرون"سبكًا" وهو الذي ربطه عبد القاهر بمعاني النحو القائمة بين معاني الكلم على وفق المعاني والأغراضِ التي يكونُ لها الكلام.

ينظر في هذا منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجنيّ، تحقيق: محمد الحبيب بن خوجة، ط:وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، سلسلة الذاكرة الحية، تونس، الدار العربية للكتاب، ط(٣) ٢٠٠٨م: ص ٣٢٧-٣٢٨.

وانظر معه: بلاغة النص بين حازم القرطاجني وجون كوين، عثمان بريكة، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، كلية الأداب، سنة ٢٠٠٩م (الفصل الثاني):بلاغة النص عند حازم) ص ٧٨-٨٨.

(٢) الموضع السابق

والمعقد الآخر: هو بقية السُّورة: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾.

لو أنّ البيان القرآني جاءَ بالآية الأولى وحدها لتَّم أصلُ المعنى. وحينئذٍ سيتولّى المتلقِّي تصوُّرَ ما سيكونُ له -على الإجمال- من هذا التبّ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ [الكوثر:٣] ولكنَّ البيان القُرآنيَّ جاء بالمعقدِ الثاني (بقية السُّورةِ) فأبان لنا ما سنعجزُ عن تفصيل تصوّرِه، فهو يتضمن إنباءً بما سيكون له في الدنيا ممثلا في قولِه ﷻ: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ وفيما سيكونُ له ولامرأتِه يَومَ القيامةِ ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾ الآيات، فذلك مِن أنباءِ يوم القيامة الَّتي لا علم لنا بعقُولنا بشيءٍ منها البتّةَ، كلّ ما نعرِفُه عنها إنّما من إنباء الوحي ولذا كان إنباءُ الوحي لنا بأحوالِها من فيضِ الرُّبوبية من عطاءاتِ الرَّحمانيّة والرَّحيميّة، والتي تستوجبُ علينا حمد الله سُبحانَهُ وتَعالى عليها، فوقَ استحقاقِه علينا حمدَه الثناء عليه لذاتِه.

ومن هذا الفيضِ أن يجمعَ إلى إنبائنا بهذا الغيبِ نعمة الالتفاتِ إليه وتدبرِه وتذكره، والانتفاعِ بذلك في ضبط حركة حياتنا في مسيرنا إلى مصيرنا، فتلك نعمةٌ عظمَى إلى آلاءٍ أعظم. والحمدُ لله ربِّ العالمين.

ولَمَّا كان المحصُولُ المعرفيّ بما يكونُ لأبي لهب الّذي يُنتجه التَّصوّرُ العقليّ مهما بلغ هذا التصّورُ العقليُّ في فتوتِه وفحولتِه وصوابه وإحاطتِه غيرَ ملائم لحالِ أبي لهبٍ من جهةٍ، وغيرَ ملائمٍ مِن جهةٍ أُخرَى لما يُرادُ أن يُقام في قلبِ المتلقّي حتى يتحاجزَ بكلّ ما يملك في كل حالٍ من أحوالِه عن منهج أبي لهبٍ وامرأتِه -لما كان كذلِك تولَّى البيانُ القُرآني الإنباءَ بذلك الغيب الذي لا سبيلَ لنا إلى معرِفتِه إلا بإنباءِ الغيب، وهذا من عظيم رحمة الله ﷻ بنا، وهو مِن فيضِ جمالِ الرُّبوبيّة علينا. من هنا يتبيّن لك أن الآياتِ الأربع الأخيرةَ في السورةِ هي بيانٌ للآية الأولى فيها. فالسُّورةُ قائمةٌ مِن أمرين: مجملٍ ومفصّلٍ له، أو مِن أمرٍ واحدٍ إن شئت: نبأ مجمل وتفصيله.

أسلوب الإجمال والتفصيل سِمة من سمات الإبانة في سورة (المسد) اقتضاها مقصِدُ السُّورة.

مُصطلحُ المُجملِ والمُفصّلِ وَرَدَ في مجالاتٍ علميَّةٍ عِدَّةٍ: وَرَدَ عندَ النُّحاةِ والبلاغِيّين والأُصولِيّين والمُفَسِّرين، ولكلٍّ مفهومُه، ونحنُ هنا نُريدُ بِه أن يَأتِيَ بيانٌ وجيزُ العِبارةِ جامِعًا فيضًا من المعاني، ثمَّ يأتي بها يفَصّلُ هذا المُجملَ بعدَه، فهُو مِن بَحرِ الإيجازِ الَّذِي يشرحُهُ الإطنابُ، وهذا الإجمالُ لا يُطابقُ الإبهامُ ولا يُقارِبه، فليس بلازمٍ أن يكونَ في الإجمالِ إبهامٌ، كلاًّ، فقد يكونُ المعنَى الجُمليّ غيرَ خَفِيٍّ كَما فِي أوَّل سُورة (المسد) وأول سورة (المائدة) وأول سورة (النساء)، فالمُجمل هنا ليس هُوَ المُجملُ عند الأصوليين، هو عند الأصوليين يقوم من الإبهام.

يقُول الجويني: «يطلق المجمل على العموم في قولك أجملت الحساب إذا جمعت آحاده وأدرجته تحت صيغة جامعة لها، ولكنَّ المُجملَ في اصطلاحِ الأصوليين هُو المُبهمُ والمُبهَمُ هو الَّذي لا يُعقلُ معناه ولا يُدرَكُ مقصودُ الَّلافِظِ وَمُبتغاهُ»[(١)].

والإجمالُ عند البلاغيين لا يقاربُ الإبهام في شَيْءٍ.هو إجمالٌ في مقدارِ المدلولات فهي وفيرةٌ مدلولٌ عليها بعبارة قليلة الكلِمِ مزرودةُ النّظمِ، فهو أقرب إلى قولِهم: أجملتُ الحسابَ أي«إذا جمعتُ آحادَهُ وأدرجتُه تحت صِيغةٍ جامِعةٍ لها»، وليس إجمالاً في الدَّلالة. الدَّلالة قد تكون ظاهرة.

وأسلوبُ الإجمالِ والتَّفصيل الّذِي هُو العُمدَةُ فِي بيانِ الوحيِ قُرآنًا وسنَّة يحتاجُ مَن يقُومُ لِتبصّرِه إلى أمرين رئيسين:

= **الأول**: أن يتلبّث طويلاً ببصيرةٍ نافذة تدركُ الأمورَ الغائرة في رحمِ الأشياءِ؛ ليقفَ على منهج البيانِ في الإجمالِ، لأنَّ الإجمالَ لا يعني أن تأخذَ وأن تدعَ، كلا،

(١) البرهان في أصول الفقه، للجويني(ت: ٤٧٨هـ) تحقيق، عبد العظيم الديب، ط: ١٤١٨هـ، دار الوفاء بالمنصورة، ج ١ ص ٢٨١.

وإنّما يعنى أن تجمعَ كلَّ شيْءٍ في شَيْءٍ واحدٍ. فيكونَ لكلِّ مفصَّلٍ حضورُه في الإجمالِ، فهُوَ حاضِرٌ مرتين، فَالإجمالُ لا يقوم البتّة على الاستغناء بشيْءٍ عن شيْءٍ بلْ يقُوم على جمع أشياءَ في شيْءٍ.

وَإنّي لاستشعِرُ في تبصّر مَنهج الإجمالِ في البيان البليغِ شيئًا من الوُعورةِ والحاجةِ إلى مُعاودةِ النَّظرِ في مَناخاتٍ نَفسِيّة وَعَقلِيّة مُختلِفة.

= **والأمرُ الآخر**: أن يتلبَّثَ طويلا بِبصِيرةٍ قادرةٍ علَى الإحاطةِ لاتساعِ أفق الرُّؤية عندها، وقادرةٍ على فقهِ أنسابِ المعاني، ومنازلِها مِن بعضها. كيما تقفَ على منهجِ المُبينِ وسنتِه البيانيّةِ في التَّفصيلِ.

هذا الأسلوبُ كما ترَى يجمعُ فضيلة الإيجازِ وفضيلةِ الإطنابِ معًا والجمعُ بيْنهما فَهمًا يحتاجُ إلى ملكاتٍ وأدوات نافذةٍ منْ جهةٍ ومُحيطةٍ من أخرى، وتلك قد لا يَتيَسّرُ استحضارُها لِكثيرٍ.

وهذا الأسلوبَ على الرَّغم من أنّه أسلوبٌ مركزِيٌّ أو بعبارةٍ أُخرَى أُسلوبٌ عُمدةٌ، وعلى الرّغم مِن وفرةِ حضُورِه في بيانِ الوحيِ إلا أنَّه لم يَحظَ بالعناية من جمهرةِ أهلِ العلمِ بالبيانِ وطلبتِه، كالَّتي حظيتْ بها بعضُ الأساليبِ الّتي هِي أَقَلُّ مركزيَّة، وأَقلّ حُضورًا مِنه ممَّا يجعلُ النّظرَ في مناهجِ فقهه أمرًا جديرًا بالالتفاتِ إليْه.

علاقاتُ الجمل في معقدِ التَّفصيل:

إذا ما كانت السُّورة ذات معقدين: معقد إجمالٍ، ومعقدُ تفصيلِ ذلك الإجمالِ، فإن هذا المعقد التفصيليّ مكونٌ من أربعِ آياتٍ بينها "حبك دلاليّ" يُحقّقُ لها تماسُكها.

جاء التَّفصيل ثلاثَ جمل:

﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾.

﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ﴾.

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۢ ۝٥﴾.

الجملة الأخيرة يُمكن أن تكون تكملة للجملة التي قبلها، فيكون نظمُها (سيصلى وامرأته حمالةَ الحطب في جيدها حبل من مسد نارًا ذات لهب) ويكون قولُه: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ معطوفًا على الضمير في ﴿سَيَصۡلَىٰ﴾ أي سيصلى هو وامرأته، ويكون قوله تعالى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ حالاً على النّصبِ، ونعتًا على الرفعِ.

ويكون قوله: ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۢ﴾ حالا، والحالية هنا هي حليتها يوم القيامة (1).

وهنالك احتمالٌ آخر أن تكون "الواو" في ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ للحال أي سيصلى نارًا ذات لهب حالة كون امرأته حمالة الحطب، فأدمج الخبرَ عن امرأتِه في الخبرِ عنه، وكان هذا من أنّه هو محطُّ النّبأ،وامرأتُه تابعة له، فكان الخبرُ عن حالِها في الآخرة مُدمجًا في خبرِه هو.

وبهذا يكون البيانُ التفصيليّ مكوّنًا من جملتينِ كما كان البيان الجُملي من جملتين ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾، ﴿وَتَبَّ﴾.

---

(1) في إعراب قولِه (امرأته) وجهان:

الأول: الابتداءُ وخبرها "حمالة الحطب" على قراءةِ الرفع، وقوله" في جيدها خبر ثانٍ، أو(حمالة الحطب) نعت للمبتدإ "امرأته" وخبرها (في جيدها حبل من مسد).

والآخر: أن يكون (امرأته) معطوفًا على الضمير في "سيصلى"، و(حمالةُ) بالرفع، نعتُ أول، و(في جيدها) نعتٌ ثانٍ.

أما على قراءة "حمالةً" بالنصب، وهي قراءة "عاصم" فيجوز أن تكون منصوبة على الحال من "امرأته" سواء كانت امرأته مبتدأ أو معطوفا على الضمير في" سيصلى" أو منصوبًا على القطع ذمًا.

ينظر: الكتاب، تأليف سيبويهِ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط(٣) ١٤٠٨هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة(ج ٢ص٧٠) .

وكتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، لابن خالويه (ت:٣٧٠هـ)ط: مطبعة دار الكتب المصرية، سنة: ١٣٦٠هـ،ص: ٢٢٤.

وإذا ما نَظَرتَ في علاقة قولِه تعالى: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ رأيت أنّه وثيق العلاقة بقولِه ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾.

وإذا نظرت في قولِه تعالى: ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾ رأيته وثيقَ العلاقة بقوله تعالى: ﴿وَتَبَّ ﴾ فهو أشبه باللَّف والنَّشر المرتَّب عندَ البلاغيين[1].

قَولُه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ : ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ فصَّلَه قولُه جَلَّ جَلالُهُ: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ وهي جملة تلتفت إلى كلمة (يدا) الَّتي هي في عرفِ النَّاس أداة لتحقيق المال والكسب[2] وفي تبيين أهل العلم الكسب بالولد، في مقابلِ (المال) تفسير بالمثال، فالكسبُ أوسع من الولد[3].

---

(١) يعدّ البلاغيون المتأخرون أسلوب اللف والنّشر من أساليب علم "البديع" وهو في حقيقته من قبيل الخصائص التركيبية، وشطر ما يسمى بِعلم "البديعِ" عند المتأخرين هو راجع إلى علم "المعاني" لأن الإبداع الذي فيه إبداع في النظم"التركيب" كالمقابلة، والمزاوجة والجمع والتفريق والتقسيم .
وشطره الآخر راجعٌ إلى الدّلالة، ظهورًا وخفاء كأسلوبِ التورية مثلاً والاستخدام، وتأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسِه والتوجيه، والقول بالموجب...إلخ ، فهو أليق بعلم "البيان"، فعلم "البديع" مكون من شرفِ علم" المعاني" وشرفِ علم" البيان": ما نظر فى الإبداعِ في تركيبه جعل من البديع، وما نظر إلى الإبداع في دلالته دخل من علم البديع، وتقسيم علم "البديعِ " عندي إلى بديع في التركيب، وبديع في الدلالة أَليق من تقسيمه إلى محسن لفظي، ومحسن معنوي، وإن كان لهذا وجهٌ حسنٌ عندي.وتبيين مقتضياتِ استحسان ما استحسنتُ لا يتسع له القول في الهامشِ، وقد فصلته في محاضراتي لبعضِ طلاب الدراساتِ العليا في جامعتي الأزهر الشريف، وجامعة أم القرى ولعلّي أحرره وأنشره مفصلا في دراسة مستقلةِ إن تفضل الله تعالى بالعون والتّسديد والتّيسير والقبول.

(٢) يقُول السهيليّ: «قَوْلُهُ ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ تَفْسِيرُهُ قَوْلُهُ: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾... أَيْ خَسِرَتْ يَدَاهُ هَذَا الّذِي كَسَبْت، وَقَوْلُهُ ﴿وَتَبَّ ﴾ تَفْسِيرُهُ. ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾أَيْ قَدْ خَسِرَ نَفْسَهُ بِدُخُولِهِ النّارَ».
(الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تاليف: لأبي القاسم السهيلي (ت:٥٨١هـ) تحقيق: عمر السلامي،ط: (١) ١٤٢١هـ، ج٣ص١٧٦).
وانظر: فتوح الغيب في الكشفِ عن قِناعِ الريبِ: حاشية الطيبيّ على الكشاف، لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي(ت:٧٤٣هـ، تحقيق: يوسف الجوارنة، ط(١): ٤٣٤هـ، جائزة دبي للدولية للقرآن الكريم، ج١٦ص ٦٢٣).

(٣) في ذهاب أهلِ العلمِ إلى تفسير(ما كسب) بالولد بعدٌ تربوي متعالِي القدر يتمثّل في إرادتهم أمرين كليّين:=

وجاء قوله تعالى: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ غير معطوفٍ على ما قبلَه من أنّه تفصيل لمجملِه، فهو بمثابة ما يُعرَفُ عن البلاغيين في علاقاتِ الجملِ بالفصل لكمال الاتصال.

وكذلك جاء قولُه ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ﴾ غير معطوفٍ على ما قبله ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ فلم يقل (وسيصلى نارًا...) وغير معطوفٍ أيضا على الآية الأولى من أجل أنَّه أيضًا تفصيلٌ لقولِه ﴿وَتَبَّ ﴾.

=إرادتهم أن يلفتوا إلى أنَّه إذا ما كانَ ولدُك من كسبِك، فأنت لا محالةَ مسؤولٌ عنه من جهةٍ، وأنتَ مباح لك أن تأخذ من كسبه ما تشاء دون إضرار فإنّ القاعدةَ الكلية الجليلة القدر: "لا ضررَ ولا ضِرار".

وإرادتهم أن يلفتوا الأبناء إلى علاقتهم بآبائهم، فهم بالنّسبة لهم كمثل ما كسبُوا من متاع الدنيا، فليس لنا نحنُ الأبناء أن نَتخذ من آبائنا موقفا مانِعًا لما يريدونه ممَّا نملك إن كانوا فيه راغبين، فإنما الولدُ وما ملكت يده لأبيه كما جاءت بالسّنة الكريمةُ، فالوالدُ سببٌ في ميلادِ ولدِه، وفي هذا تقديرٌ بالغٌ لمبدأ السَّببية، وأنّ الأسباب لها قدرُها وإن لم تكن هي الفاعلة. إنّما الفاعل وحده الله تعالى، وهي برغمٍ من ذلك مأمورٌ باتخاذها سبيلا إلى ما يقدّره الله تعالى.

واحترامًا لمبدأ السببيّة جاءت الشّريعة مانعة القصاصِ من الأبِ إن قتل ولدَه عمدًا، لأنّ حدَّ القِصَاصِ هنا يُدرءُ بشبهة السَّببية التي هي كشبةِ الملكية.

فتفسير قولِه تعالى (ما كسب) بالولد ذو ملحظ تربوي عليّ، ولا يمنع البتة أن يدخل فيه كلُّ ما كسب، ولا ريب أن أعلى ما يكسِبُ المرءُ الولدَ.

وثم أَمرٌ آخر يلقتنا إلى مكانة الأولاد في نفوسِ الآباء، فالولد هو الذي يسعى الوالدُ إلى كسبِ متاع الدُّنيا من أجله، ولولاه لما كان لدى كثير من النُّفوس مطمح إلى اكتساب كثير من متاع الدنيا، ولذا كان الولدُ مجبنة مبخلةً لأبيه، والجبنُ والبخلُ مِن أكثرِ ما يفرّ من مقاربته ومقاربة أسبابِه ودواعِيه الرجالُ وبرغمٍ من ذلك فإنَّ الولدَ إلى أبيه حبيبٌ،﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران:١٤].

من هنا تدرك حكمة أهل العلم – رضي الله عنهم وأرضَاهم – حين فسّروا الكسب في الآية بالولد، وهو كما قلت تفسير بليغ الدلالة، إلاَّ أنه غيرُ محيط.

والوصلُ بتركِ العطفِ عندَ البلاغيين أقوى من الوصل بعاطفٍ، ذلك أنَّ الوصلَ بترك العطفِ وصلٌ جُوانيّ وثِيق، فلم يفتقر إلى عاملٍ خارجيّ ينشِئُه أو يؤكدُه أو يدلّ عليْه.(١)

وإذا ما كان قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ ينبئُ عما يكون له في دنياه، فإنَّ قُولُه تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ إنباءٌ عمَّا ينتظرُه من عذابٍ فِي قبرِهِ بعدِ هلاكِه فِي الدُّنيا، وفي الآخرة في جهنّم. وكأنَّ بينهما تقابلاً من وجهٍ: ذاك جزاؤه في الدُّنيا، وهذا جزاؤه في الآخرةِ، وتناسبًا من وجهٍ آخر: هما معًا من باب واحدٍ: بابِ التبِّ والهلاك.

وجاءت (السّين) مؤذّنة بأنّ ذلك قريبٌ حدوثُه، فلم يقل (سوفَ يَصلَى) وقد كان هذا، فقد مَاتَ بعد موقِعة (بدر) أيْ بعدَ عشر سِنواتٍ من نزول السُّورةِ.

وجاء البيانُ عن النّارِ بقولِه: ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ تهويلاً، ذلك أنّ قوله ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ دالٌّ على عظيم ما لها من ذلك اللهب، فأنت إذا قلت: "محمد صاحبُ مال" وقلت: "محمد ذو مالٍ"، كان قولك:" محمّدٌ ذو مال" أقوى، لأنّ المالَ يحل محل التابع له، بخلاف "صاحب مالٍ" فإنَّ المنعوتَ يكونُ في المعنى تابعًا للمضافِ إليه، على نحو ما تقول:"خالدٌ صَاحبُ محمدٌ"، فخالدٌ تابع محمدًا.

وأنت تلحظ العلاقة الدّلالية بيْن قوله (أبو لهب) و(ذات لهب) فإنْ تكنْ هِي ذات لهبٍ، فإنَّه هو أبو لهبٍ، فهو أحقّ النَّاسِ بهذه النّار.

وإذا ما كان الذي مضى قولاً في خصائصِ البناءِ الكُليِّ لسورة "المسد" فإنَّ لها خصائصَ أخر.

---

(١) ينظر دلالات التراكيب: دراسة بلاغيّة، لشيخنا محمد أبو موسى، ط:(٢) ١٤٠٨هـ، مكتبة وهبة، ص ٢٩٣-٢٩٤.

مِن خصائصِ الأسلوبِ فيها تجلي جَلال الألوهية وظهورُه ظهورًا يحملُ في رحمه الإشعارَ بجمالِ الرُّبوبيَّة.

المعنى القرآنِيُّ في أيّ سُورة من سورِه، بل في آيِّ آيةٍ من آياتِه قائمٌ مِن أمرين رئيسين لا يفترقان أبدًا.

ولا يستقيمُ البَتَّةُ أن يَستنبط ناظرٌ في آية مِن آياتِ القرآنِ الكريم -لا أستثني- إلاّ وما يستنبطُه مِن المعني قائمٌ من هذين، فهما عمادُ كلّ معنًى قرآنيّ، وإلاَّ كان هذا غيرَ جديرٍ البَتَّةَ بأن يُوصفَ بأنّه قُرآنيٌّ.

إنَّ آيـةَ قُرآنيّةِ أيّ مَعنًى فِي القُرآن أن يقُومَ من هذين الأمرين:

الأوّلُ: جلالُ الأُلوهيّة وبهاؤها ورهبوتها

والآخر: جَمالُ الرّبوبيّة لطفها ورحموتها.

الأول:جلالُ الألوهيّة:

يقُيمُ المتلقّيَّ فِي مقام العُبوديّة الرّاهبة المخبتة الخاشعة القانتة الخاشية.

وهذا المقامُ قد اتّسع في كتابِ الله ﷻ الحديثُ عنه والإغراءُ بِه، والثَّناءُ على السَّاعين إليه والقائمين فيه.

وهذا المقامُ جديرٌ بالعبد أن يقدّمه وأن يُعليه على مقامِ الرَّجاء في مسيرِه ؛ لأنَّه مما يُعينه على التَّحاجزِ عن كلّ ما لا يُرضِي الله ﷻ، وذلك التحاجزُ هو رأسُ ما يجبُ أن يحقّقه العبدُ.

تحقِيقُ هذا التحاجزُ أشدُّ على النفسِ، ولا تصبرُ عليْه إلا نفسٌ فتيّة تعشقُ التَّحدّي. فهو أحوج إلى حَسن الدُّربة، وحسن المصابرة والمثابرة والتَّواصِي بِه..

الخصِيصةُ الأولى تملأ القلبَ مهابةً ورهبًا في مقامه بيْن يدي الله ﷻ وعطاء هذا ذو أثرٍ بالغٍ في حياة المسلم ووجود الأمَّة كلِّها ؛ لأنَّ حضُورَ جلالِ الألوهيّة في

القلوب وظهورِه عليه يُحاجزُه عن أن ينشغلَ بغير ما يُرضِيه، ويحاجزُ الجوارح عن أن يصدرَ عنها ما لا يُرضِيه، فيسلمُ المرءُ ومَن حوله من كلِّ ما يُضير، فيتحقق للأمَّة سلامُها الاجتماعي، فتتفرغُ لتعميرِ الحياة بطاعةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وشجرة الطَّاعة وارفة الظِّلالِ، تتَّسعُ لكلّ الخلائقِ، ووافرة الثِّمار تشبعُ كلَّ الخلائقِ. يقُول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

والآخر جمالُ الرُّبوبية:

وهذا يُقيمُ العبدَ في مقامِ الرّجاءِ واليقين بواسِع مغفرتِه ورحمتِه، وهذا ما يلفتنا إليه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حين عرفنا به في فاتحة سُورة (أم الكتاب).

استفتح بيانه بقولِه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

يَتجلّى لك الجمالُ والجلال في هذه (الباء) التي يحرك بها اللسان أوّل ما ينطقُ من آياتِ الله جَلَّ جَلَالُهُ وأوّل ما يتحرك لها الجنان متدبرًا متلقِّيًا عطاءات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى معلنا كمال الجلال والجمال: الجلال في أنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو المستحق وحدَه أن يبتدأ العبد أمره بذكر اسمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلو كان ثَم إلهٌ غيرُه لشاركه في هذا الاستحقاق وهذا التَّفرُّدُ بالاستحقاق يفقهه القلبُ المعافَى من تعلق (الباء) وما دخلت عليه بفعلٍ محذوف يستعلِي المقام تقديرَه متأخرًا، فيدلّ هذا التقديمُ للمتعلِق ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ على المتعلَّقِ به أنَّ هنا اختصاصًا كما تهدي إليه قواعدُ العربيّة، والقرآن إنّما يفهم وفق سنة العربيةِ ونحوها ونهجها في الفهمِ والإفهام فمَن لَم يُحسن أمرها فِي هذا، فلن يتأتّى له البتة أن يفهم عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[1] في هذا الاختصاصِ جلالُ الألوهيّة من وجه وجمالُ الرُّبوبية

(١) عُني القُرآن الكريم بتصريفِ هذا الأمر، وببسطه في السياق القرآني المديد، من نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢].

من آخر، فمن جمالها أن لم يجعلنا عبيدًا لغيرِه ولَم يتَّخذ ولدًا ولمْ يَكن لَه شريكٌ في الملك.

وَمن جلالِها أنّ العبدُ مفتقرٌ إليْه لا سبيلَ له أن يستعين بغيرِه، فإن ضلّ وفعل خسِر خسرًانًا مبينًا.

ثُم يتجلّى لنا فيضُ الجمال من اصطفاء اسمه الرَّحمن واسمِه الرَّحيم من بين سائر أسمائه الحُسنَى، ففِي هذا الاصطفاءِ استهلالٌ بفيضِ الجمال، فالله ﷻ يتلقانا أوّل ما يتلقانا بجمالِ رُبوبيَّته برحمانيَّته وبِرحيميَّته، ثُمَّ يأتيك إنباؤه بأنَّ له الحمدُ لذاته، وإذا ما سمع القلبُ المعافَى من داءِ الغفلة والهوى معنى"الحمدِ" أيقينَ أنَّ ههنا فيضَ عطاءٍ وإكرامٍ، فإذا توافد عليه البيانُ: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ علم أنَّ هذا الفيضَ مِن العطاءِ إنَّما هو تربيةٌ له وتنميةٌ، وهي تربيةٌ وسيعةٌ لا يُحاطُ بها، تربيةٌ تسعُ العالمين أجمعين، وهنا يطمئنُّ القلبُ الُمعافَى إلى وافرِ عطاءاتِ ربّه ﷻ.

وكلُّ ذلك من فيضِ جمالِ الرُّبوبية، ويأتيك مكررًا اصطفاءُ اسمه الرّحمن واسمِه الرحيم، فيتقرَّرُ معنَى هذين الاسمين في القلبِ، فإذا هو معنى مركزيّ حاضرٌ يسيطرُ على منهج هذا القلبِ في حركة حياتِه.

وهذا آيةٌ بيّنة على أهمية الالتفات إلى عربية هذا البيان الإلهي:**عَرَبيّته** في مفرداتِ كلمِه، و**عَرَبيّته** في نحو تراكيبِه، و**عَرَبيّته** في منهج الإفهام، فهو لا يُفهمُنا إلا مِن خلال ما هو سُنة في هذا اللسان: لسان سيّد الخلائق ﷺ.

فلا يتأتّى لأحدٍ أن يكون على لاحب سياق الفهم الصّوابِ عن الله ﷻ إذا لَم يكن مقتدرًا على حسن الفهم عن لسانِ العربيّة في زمنِ نزولِ هذا البيانِ الإلهيّ.

وإذا ما كان حُسنُ الفهمِ عَن الله ﷻ فضيلةً ترفعُ من مقامِ المرءِ، بل فريضة لا يليقَنَّ البتّةَ بعاقلٍ إلا أن يجتهد في السَّعي إلى القيامِ بحقِّها – إذا ما كان هذا وكان ذلك لا يتحقق إلا بحسن الفهمِ عن لسانِ العربيّة في زمن الوحيّ ، فحقٌّ أن نقُول إنَّ السّعيَ إلى حُسن الفهم عن لسان العربية زمنَ نُزولِ الوحي هو فضيلةٌ ترقَى إلى أن تكونَ فريضةً قد يُساءَلُ المرءُ يَوم الدّينِ عن تقصِيره في إحسانِ القيام بها.وعن تقصِيرِه في حملِ رعيّته إلى إحسانِ القيامِ بحقّها.

يجعلُ الرَّحمةَ العامَّة والرَّحمَة الخاصّةَ أساسَ حركتِه، فلا يُقدِمُ على أمرٍ إلا مِن باعثِ الرَّحمةِ حتّى وهُو يُعاقبُ من تَجِبُ عقوبتُهُ إنّما ينبعثُ من فيضِ رحمته به أو رحمته بِمن يَستحقُّ أن يُرحمَ بعقابِ من يستحقّ العُقُوبة، وهنا يفهمُ القلبُ المُعافى وجهًا مِن وُجوه معنَى قول الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

في صحبة قَولِه عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣] ويكرّر المعنى في سورة أخرى ليكون معنًى مركزيًّا من معاني الهُدَى فِي القُرآن الكريم:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التحريم:٩] وقولِه ﷻ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠] وَقَوله ﷻ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩] وقولِه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣] .

ويفهمُ وجهًا من وجوه معنى قولِ النبيّ ﷺ: «**إنّما أنا رَحمةٌ مهداةٌ**»[(١)] إنّه حقًا لرحمة أُهديت إلى الإنسانية جمعاء في جميع أمره ﷺ حتّى وهو يقاتلُ من يأبى أن

(١) روى الحاكم في المستدرك بسنده...حَدَّثَنَا زِيَادُ بْنُ يَحْيَى الْحَسَّانِيُّ، أَنْبَأَ مَالِكُ بْنُ سُعَيْرٍ، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:« **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ** ».هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا فَقَدِ احْتَجَّا جَمِيعًا بِمَالِكِ بْنِ سُعَيْرٍ، وَالتَّفَرُّدُ مِنَ الثِّقَاتِ مَقْبُولٌ».

(المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري (ت:٤٠٥هـ) ط:دارالمعرفة، بيروت، بإشراف: يوسف المرعشلي.(ج١ص٣٥. حديث رقم ١٠٠).

يقُول"البزار" في "مسنده":«وهذا الحديثُ لا نعلم أحدا وصله عن أبي صالح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلا مالك بن سعير وغيره يرسله فلا يقول، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنّما يقول عن أبي صالح عَنِ النَّبِيِّ ﷺ» .

مسند البزار: البحر الزخار،لأبي بكرٍ البزّار(ت:٢٩٢هـ)،تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وآخرَيْنِ(ط١) ١٩٨٨م، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة (ج١٦ص ١٢٢).

وقال الألباني في السلسلة الصحيحة: «قلت: وهذا إسناد صحيح مرسل» . (ج١ص: ٨٨٢).

يُبَلِّغ الإسلامُ للعباد، ولا يكتفِي بأن يبقَى هو على دينِه الباطلِ، بل يمنعُ الآخرين من أن يكونوا مُسلمين، فمثلُ هذا يقاتلُ رحمةً بالآخرين.

يقُول شيخ الإسلام ابن تيميّة: «والرّحمة يحصلُ بها نفعُ العباد، فعلى العبد أن يقصد الرّحمة والإحسان والنفع، لكن للاحتياج إلى دفع الظلم شُرعت العقوبات، وعلى المقيم لها أن يقصد بها النَّفع والإحسان، كما يقصد الوالد بعقوبة ولده، والطبيب بدواء المريض»(١).

من الذي مضَى يتبيّن لك أن الله ﷻ استفتح تعريفنا بِه بجمال ربوبيته، وختمه بجلالِ ألوهيتِه﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ وتبيّن لك أنَّ المَعنَى القرآنيّ في أيِّ سُورة يجمع بين خصيصتيه الرَّئيستين:

الأولى جلالُ الإلوهية.

والأخرَى جمالُ الربوبيّةِ.

وإذا ما نظرنا في المعنَى القائمِ فِي سورة (المسد) ألفينا حضورَ الجلالِ والجمال فيه حضُورًا يتَّسم بأمرٍ مهمٍ:

= جلالُ الألوهيّة في معناها أظهرُ للقلبِ، وأسرعُ وصولاً إليه، كما لا يَخفَي عليك.

= وجمالَ الرُّبوبيَّة في معناها وإن كان ذا خفاءٍ فإنّه ليتجلَّى للقلبِ البصيرِ:

جمالُ الرُّبوبيّة في معني هذه السّورة لازمٌ من لوازمِ جلالِ الألوهيّة فيها ، فإنّ تبّ أبي لهب وهلاك مُحرّضتِه هو في حقيقته بُشرَى لكلِّ صاحب دعوةٍ حقٍّ. فمن دمالِ رُبوبيّة الله تعالى أهلَ الحقِّ والدّعاةَ إليه بلسان الحال من قبلِ لسانِ المقال أن يهلِك أعداءُ الحقِّ، وتبيدَ قوتهم، وأن يريهم الله ﷻ ذلك رأي العين.

(١) جامع المسائل لابن تيمية،تحقيق: محمد عزير شمس، ط(١) ١٤٢٢هـ دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع ، (ج ٦ص٣٧).

ذلك أنَّ هذا يمنحُهم فتوةً في الدَّعوة والتمسّك بالحقّ، فرؤيةُ النَّصر من عواملِ الثباتِ على الحقِّ، والله عزّ وجلّ لا يدع المجاهدين بالحقِّ للحقِّ دون أن يذيقهم لذة ذلك، ويُريَهم ثمرة فِعلهم في أنفسِهم أولاً، ورأسُ ذلِك الشّعور بمعيّة الله جَلّ جلالُه، واستشعار العبدِ أنّ أول ثمارِ الإقبالِ أنَّ الله ﷻ ارتضاه لأن يقُوم بدعوتِه واصطفاه لِذلك، فأيُّ جمالٍ أعظمُ من أن تشعرَ بِنعمة اختيارِ الله ﷻ لك لتتولى الدَّعوة إليه، ويشرحَ صدرَك إليْه أو بعبَارة أخرى أن تشعر بنعمة اصطفائه تعالى لك لتقوم بما يقُوم له الأنبياء بلسان حالك ولسان مقالك.إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ.

فسورةُ (المسد) حين نزلتْ وكان حالُ الدّعوة فِي سِياق المناهضةِ وقد حملت معنًى يعلُوه جلالُ الألوهِيّة وسُلطانها، استشعرَتْ قلوبهم التي أشرقَ فيها الإيمان أن أعداءهم إلى زوالٍ، وأنَّ الإسلامَ ماضٍ في الأرض جميعِها، ذلك أنَّ هلاكَ رأس العناد ومن أغرته بِه آيةٌ بينةٌ على أنّ كلَّ من كان على نهجِه ونهجِها له التَّبّ والخُسران.

وهذا هو عينُ البُشرَى بالنَّصر، ومن ثَم جاءت هذه السُّورة في نسقِ التّلاوةِ بعد سُورةِ النَّصرِ والفتح.

ومِن البيّن الّذي لا يَخفَى على طالبِ علم بكتابِ الله ﷻ أنّ السُّورة الآتية عقبَ سُورةٍ أخرَى إنّما تضيفُ إلي معناها من جنسهِ، وتؤكده أيضًا، فهي تحمل أمرين:

= **توكيد المعنَى السّابق.**

= **وتأسيسُ معنًى آخر يضِيفُ إليه.**

فسُورةُ (المسد) تؤكد معنى سورةِ النصر والفتح،الذي جاء في سُورةِ "النصر" وهذا من بحر جمالِ الرُّبوبية، وتؤسّسُ لِنعمة هلاكِ أهلِ العناد وأعوانهم. وهذا من بحر جلالِ الألوهية. وهذه الحقيقةُ باقية ما بقيتْ الحياة، فعلَى أهل الحقِّ والدُّعاةِ إليه أن يُقيموها في قلوبهم نورًا يَهدِي وعزمًا فتيًّا يحقّقُ الغَاياتِ،وإن شَطّت.

تـذييل

ينتهِي بنا التّبصرُ في البيان القُرآني عن معانِي الهُدى في سورة "المسد" إلى أمور أوجزها فيما يأتي.

= إذا ما كان لكل سورة من سور القُرآن الكريم خصُوصية في مقصُودها الأعظم، وفي موضُوعها، فإن ذلك يقتضِي أن يكون لها خصوصية في أسلوبها تركيبًا وتصويرًا وتحبيرًا. ذلك أنَّ الخصُوصيّة الأسلوبيّة بوجوهها الثلاثة: التركيبُ والتصويرُ والتحبيرُ إنّما هي وليدةُ الخصوصية في المقصد والموضوع.

= كان لسورة "المسد" مقصد كليّ يتمثل في تقريرُ أمرين رئيسين تحتاجهما الدَّعوة في باكر أمرها، وفي مَسيرِها كلِّهِ مِن بعدُ، هذان الأمران:

الأولُ تقرِيرُ جلالِ الألوهيّةِ في قلوبِ العبادِ.

والآخر تقريرٍ ثقة أتباع النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم في انتِصار دعوة الحق وإزهاقِ الباطلِ أهلِه ثقة تفتح القلوبَ للإسلام قبلِ أن تفتح البلدان.

= قام البناء الكليّ لسُورة " المسد" على معقدين(فصلين): الأوّل اشتمل على الآيتين الأوليين،والآخر على سائر السُّورةِ.

= وقام منهاج الأسلوب المبين عن مقصُود السورةِ وموضُوعها على الإجمال والتفصيل. وكان إجمالها متمثلاً في المعقدِ الأول، وكان تفصيلها متمثلا في المعقد الثاني، وهذا يُبين لنا التآخي بين ما قام عليْه البناء الكليّ للسورةِ،ومنهاج الأسلوبِ المبين عنه.

= بنيت سورة "المسد" على الأسلوب الخبريّ، فلم يكن فيها أيٌّ من الأسلوب الإنشائي الطلبي أو الأنشاء غيرِ الطلبيّ. وهذا يتلاءم مع ما تحققه السورة من الإعجاز بالإنباء بالغيبِ الذي رأى الناسُ في زمن الدّعوة، وفيما تلاه إلى يوم

الناس، مضافًا إليْه الإعجازُ البلاغيّ الذي يبصر معالمه الكبرى وملامحه الدقيقة كلُّ ذي قلبٍ عقول وذوق نافذ.

= كان لسورة " المسد" عظيم تناسب بين ما سبقها من السّور: (الفيل– النّصر) على منهاج التناظر والتقابل، بل يجتمع المنهجان: التناظر والتقابل في السورةِ الواحدة، كما تراه في سورة " الكوثر".

وكانت لها علاقة تقابل بيْنها وبين سورة "النساء" فهما متقابلان موقعًا في نسق التلاوةِ، وفي المقصُود والموضوع.

= حملت سورة "المسد" البشرى لأصحاب الحق أنّ الصادين عن سبيلِ الله تعالى إلى تباب،وأنَّ مالَهم وعتادَهم مهما عظم قدره وقوته لن يُغني عنهم شيئًا في الدّنيا والآخرة، وهذه حقيقة قرآنية ستبقَى ما بقيتْ الحياة. وكل هذا إذا ما قام في قلبِ المؤمن عظم نشاطه في تعمير الدنيا بطاعةِ الله تعالى،وتلك رسالته في هذه الحياة.

تلك مراجعاتٌ عجلى في تبصّر بعضِ سماتِ منهج الإبانة والإفهام في سورة من سور القرآن أردت لها أن تلفت إلى تثوير منهج إبراز العلاقة بيْن مقصُود السورة، ومنهاج الإبانةِ فيها عن المعاني،واصطفائه أساليبَ معينة تحقّق للسُّورة مقصُودها، حتى لا ينصرفُ كلُّ جهد طلابِ العلم إلى النظر في المعانِي الجزئية دون اعتناء بالنَّظر الكليّ الضّابط حركة النظر الجزئيّ.

والحمدُ لله ربّ العالمين.

وكتبه: محمود توفيق مُحمّد سعد

almasry411@gmail.com



ثبت أهم المصادر والمراجع

١- **أسرار البلاغة**، تأليف عبد القاهر الجرجاني، (ت:٤٧١هـ) قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر. مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

٢- **البديع**، تأليف: عبد الله بن المعتزّ تحقيق أغناطيوس كراتشفوفسكي،ط (٣). عام:١٤٠٢هـ دار المسيرةِ، بيروت.

٣- **البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية**، تأليف: جميل عبد المجيد،ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة دراسات أدبية سنة: ١٩٩٨م .

٤- **البرهان في أصول الفقه**، تأليف أبي المعالي: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني.(ت: ٤٧٨هـ) تحقيق: عبد العظيم محمود الديب. نشر: دار الوفاء - المنصورة – مصر.ط(٤) عام: ١٤١٨هـ.

٥- **بلاغة رد الأعجاز على الصدور في القرآن الكريم**، تأليف أحمد العثمان، جامعة الإمام محمد بن سُعود الإسلاميّة، كلية اللغة العربية (ماجستير) عام:١٤٣٠هـ.

٦- **بلاغة النص بين حازم القرطاجني وجون كوين**، تأليف عثمان بريجة، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، كلية الأداب، سنة: ٢٠٠٩م.

٧- **تفسير القرآن العظيم**، تأليف أبي الفداء:إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت: ٧٧٤هـ) لابن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط(١) عام: ١٤١٩هـ.

٨- **تفسير نظم القرآن**، تأليف: عبد الحميد الفراهي: الطبعة الأولى، الدائرة الحميدية –الهند: سنة: ٢٠٠٨م.

٩- **الجامع لأحكام القرآن**، تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي (ت: ٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. نشر: دار الكتب المصرية – القاهرة. ط (٢) عام: ١٣٨٤هـ.

١٠- **جامع المسائل**، تأليف شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية.تحقيق: محمد عزير شمس. نشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع. ط (١) ١٤٢٢هـ .

١١- **خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني**، تأليف: محمد أبو موسى، مكتبة وهبة ط(٤) عام: ١٤١٦هـ .

١٢- **دلائل الإعجاز**، تأليف:عبد القاهر الجرجاني(ت: ٤٧١هـ) قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بِجدة مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني. ط: (٣) عام: ١٤١٣هـ.

١٣- **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام**، تأليف: أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت: ٥٨١هـ) تحقيق عمر عبد السلام السلاميّ، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.ط: (١) ١٤٢١هـ.

١٤- **فَضائل القرآن**، تاليف:أبي العَبَّاسِ المُسْتَغْفِرِيُّ(ت:٤٣٢هـ) تحقيق: أحمد بن فارس السلوم، نشر: دار ابن حزم. ط(١) سنة: ٢٠٠٨م .

١٥- **الكتاب**، تأليف: سيبويه: أبي بشر:عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي (ت: ١٨٠هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، نشر:مكتبة الخانجي، القاهرة. ط (٣) عام: ١٤٠٨هـ.

١٦- **كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم**، تأليف ابن خالويه (ت: ٣٧٠هـ) مطبعة دار الكتب المصرية، عام: ١٣٦٠هـ.

١٧- **مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر**، تأليف: أبي عبد الله المَرْوَزِي (ت: ٢٩٤هـ) اختصار المقريزي.ط(١) ١٤٠٨هـ فيصل أباد – باكستان.

١٨- **مفاتيح الغيب – (التفسير الكبير)**، تأليف فخر الدين: محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازي (ت: ٦٠٦هـ).نشر: الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت. ط(٣) عام : ١٤٢٠هـ.

١٩- **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، لحازم الأنصاريّ القرطاجنيّ، تحقيق: محمد الحبيب بن خوجة، ط:وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، سلسلة الذاكرة الحية، تونس، الدار العربية للكتاب، ط(٣).

٢٠- **نظم الدُّرر من تناسبِ الآيات والسور**، تأليف برهان الدين:إبراهيم بن عمر البقاعي. (ت:٨٨٥هـ) نشر دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة